في ذكرى أديب العربية :

يرحمك الله أبا عبيدة !

للأستاذ محمد سليم الرشدان

يا لله ما أعجب ! هذا هو الدهر تنقضي أيامه وتنطوي لياليه ، فيجتاز بذلك حولاً من العمر ، يطل من ورائه أبو عبيدة ، أديب العربية الأكبر ، العلامة الجليل محمد أسعاف النشاشيبي . فإذا هو ذكرى في ثنايا التاريخ ، وإذا هو حنين تفيض به القلوب ، ثم إذا هو طيف تجتليه الخواطر ، وتفتقده النواظر .

ويح هذه الآمال الوديدة ، لطالما زينت له مخوف السيل ، وهونت عليه وعر المسالك . فمير كؤودها ، واعر وري متونها ، ومضى قدُماً لا تقعده الخاطر ، ولا تكبح جماحه الأرزاء . فكانما أدوك غاية ، برزت له من ورائها غايات .

بل ويح هذا الطموح ما زال به يستحث خطوه الجامح ، فهو لا يستقر إلى مآل ، وهو ما يفتأ يشد الرحال ولكنه أخيراً مضى بعد أن خاض شتى المجاهل في دنيا (العربية) ، وتجاوز في ارتيادها بعيد الآفاق . فلم تفته منها صغيرة ، ولم تقف بين يديه كبيرة . فقد ألم بهذه وسبر أغوار تلك ، وأحاط من ذلك كله بما لم يحط به إلا قليل ، فكان شأنه في هذا السبيل ، شأن المجاهد المستبسل ، لا تقعده جراحات الندر ، ولا ترده أطايل العدو الخاتل . فخاض غمرة الكفاح ، ولا أيد ولا وَزَر ، إلا ما اشتمل عليه من مضاء العزيمة ، فأدرك النصر الباهر في كل ميدان ، ومضى في قافلة العمر تزامله العزة والأنفة والاباء ، لا يضير هذه القافلة أن تعترض سبيلها (الثعالب) حيناً ، ثم لا تلبث أن تحول أو تزول .

أرأيت — يا أخي القارئ — ركاباً يتضرم أواراً ، ويتسعر لهيباً ، ويثقل في جوفه شواظ ورجم ، فهو إذا ما فار ومار زفر زفرة أسكت بها من حوله كل باغم ؟ كذلك عهدت النشاشيبي المتقد حيال أعداء العربية ، وأجراء ذوي الأغراض . ومالك لا تستيقن ذلك حين تسمعه يردد ساخطاً :

« وأن نجم ذئب فصاح . (إن لكل عصر لغة ، وإن لطبيعة العصر سلطاناً على القول ، فكيف تنادينا إلى لغة يقول العصر — إن استمعها — ليست هذه بلغتي ! فنحن نشتاً ما تنادينا إليه ، ولا نحب أن نقتل أنفسنا متكبين على القول القديم العتيق ، الذي شرب الدهر عليه وأكل ، ولا نهوى إلا لغتنا العصرية السهلة الواضحة ، التي يفهمها كل إنسان حتى راعي البقر ...) أن نجم لنا مثل ذلك الذئب وعوى عواءه ،

الفاكهة وقد حرمتها منذ زمان وأنا أرى دكان الفاكهي في غدوي ورواحي فيجذبني إليه في شدة وعنف ولكني لا أجد الجرأة على أن أقف ببابه أساومه . ثم دفعني شيطاني إليه — بعد حين — فاشتريت ربع أقة عنب دفعت ثمنها ستة مليمات . ولكن حرارة القيظ تركت العنب يتلهب كأنما أوقد عليه بنار جهنم ، ثم دفعني شيطاني مرة أخرى فاشتريت ثلجاً بمليم واحد . وهكذا أنفقت في واحدة كل ما أملك : سبعة مليمات ادخرتها في أيام وأيام .

وتسللت إلى حجرتنا في حذر وأنا أوقن بأنها خاوية ، وأن أصحابي جميعاً في الأزهر ولن يحضروا إلا بعد ساعة ؛ ودلفت إليها على مهل ، ثم وضعت أمامي العنب وسويت عليه الثلج ، وطفقت أنظر إليه في شوق وأتأمله في شغف ، وأتناول الحبة إثر الحبة ، أتذوقها في لذة وسعادة وطمأنينة .

وعلى حين فجأة انفتح الباب ودخل الشيخ عليّ ، واعتراني الارتباك والخجل ، ونظر هو إلى الطبق أمامي وقد ملأته الدهشة وسيطر على العجب واندفع يلومني : « عنب وثلج ! عنب وثلج ! هذه هي متعة الحياة ولذتها ! » ثم انصرف وعلى وجهه سمات الغيظ والحرمان في وقت معاً .

وعجبت أنا لحديث الشيخ ، ثم انطويت على نفسي أحدثها : « ما أتفه متع الحياة ولذائذها إن كانت تشترى بسبعة مليمات ! »

ثم انطوت الأيام لتطلعني أن متع الحياة ولذائذها غالية غالية تكلف المرء الدم والعمر والمال جميعاً ...

فاضل محمود حبيب

القمناء حجراً وحجرين ، وعصوناه ثم قلنا له : أجل أيها المدجل المحاوت إن لكل دهر لغة ، وإن لطبيعة العصر سلطاناً ... غير أن (لغتك العصرية) هذه لغة ممقتة ، فنحن ندعوك إلى مداواتها وتقويمها بتلاوة القول القديم ، لكيلا تُسَلّ أو يدود لحمها ثم تموت ... » .

بمثل هذا القول كان يصمت أولئك الذين طالما دعوا — من حوله — إلى نبذ لغة (القرآن) ، والاستعاضة عنها بطلاقة غوغاء السوقة ، وترك ما أعيى أئمة العربية شباة أقلامهم وشباب أعمارهم ، بجمعه واستنباطه من قواعدها وأصولها ، واستيداله بما خيلته طبيعتهم الأعجمية ، من كلام مهمل سقيم ... يا للكفر الصراح ، ويا للعقوق الآثم ! لم لا يعد هذه (الثلة كالثلة [1]) ؟ ولم لا يعد من كان في مثل هؤلاء (ذنباً أفاكاً) ! بل هل عصيتك — لو كنت حيث كان — إلا ممتعضاً بمثل قوله :

« كلا ! إن هذا الزنيم قد جهل وجار عن الحق ، واحتقد على لغة العرب فكدح في محقها (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ...) » . لكأني بك تقول ذلك (أو من مثله) ما دمت تغضب لهذا الإرث الجليل الخالد ، الذي لو كان حصاد عام ، بل لو كان حصاد جيل لتأسى فاقده . ولكنه — يا فتى — حصاد المئين من السنين ! فأنى لك العزاء (آنذاك) ! والخطب — لو حصل — جليل ، والمصاب — لا كان — مفزع مهول ! فما لأبي عبيدة لا يفزع ؟ بل ماله لا يستنفر الإنس والجن والسموات والأرض والجبال . فيخرج من (صومعته) هائجاً ، وهو يردد متسائلا :

« وكيف يسول الخبث والعجز والجهل واللؤم الضريبة ، كيف يسول كل ذلك للفتى أن يأتي بالكفر براحاً وبالشر صراحاً ، ولا يحسب للكفرة بالحقيقة حساباً ، ولا يخشى لشرارته عذاباً ، ولا يخاف عقباها ؟ وكيف يهون له اجتقاب كل موبقة . أن يؤتى إلى اللغة العربية ... فيجز شعرها ، ويخدش ذلك الخد الأسيل ... ويخمش ذلك الوجه الجميل ويفحم ! وتصبح (ابنة عوف) مضرب المثل في القبح ، وهي المثل المضروب في الحسن والجمال ! ... » .

أرأيت كيف كان أبو عبيدة (طيب الله ثراه) يغضب للعربية وأهلها ، فلا تأخذه في سبيلها لومة لائم ، ولا يبالي أن يخاصم القريب والبعيد مادام قد انحرف عن الجادة ، وجانب الصراط السوي . وإذا كان المرء يناضل في ميدان واحد لا يعدوه ، فقد كان هو يناضل (في آن واحد) في ميادين شتى . ومن ذلك أن يتصدى (موجهاً أو مجيباً أو معترضاً أو متحدياً) في أقطار مختلفة ، وفي صحف متعددة ، وقد تتكرر خلال ذلك في أرجاء ، وادرع لكل ميدان بلبوس . فهو « أزهري المنصورة » حيناً ، وهو « السهمي » حيناً آخر . ثم هو إن بالغ في التواضع (والتواضع خلة لا تعدوه) أرسل ما يكتبه غفلاً من أية سمة ، فيشاركه صاحب المجلة تكتمه ، معرفاً كلامه الذي يتم عليه بقوله : « لأستاذ جليل » أو بما هو من على شاكلة هذا التعريف . ثم هو جريء لا يهاب . إذا تعرض لأمر تخشى عواقبه ، نحى حجاز التواضع جانباً ، وتبدى للخصوم باسمه وكنيته ، شأن البطل المقدام لا يبالي أن يعرفه الخصم استهانة بخطره ، وغلواً في الحفاظ والنجدة . فليرحمك الله أبا عبيدة ، لقد كنت أمة في رجل ، وكنت رجلاً (نسيج وحده) .

ليتك تعلم — يا قارئي الكريم — مبلغ اعتزاز ذلك الأديب الفذ بكتاب الله ! الطالما أجابني على كثير مما كنت أسأله عنه بآيات بينات منه . وهو يردد مفتخراً : « أرأيت أي كنز يحوي بين دفتيه هذا الكتاب ؟ أو رأيت شبيها له فيما عبر بك من لغات (آشور وسريان وعبران) ؟ هيهات ! ولئن تحريت فما أنت بواجد ! (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . »

كان رحمه الله كثيراً ما ينظر إلى هذا الكتاب العظيم نظرة الشغف المحب ولسان حاله يستعيد قوله فيه : « يا أيها الكتاب المعجز ، لقد هلك من يدرك فصاحتك ، ويكتنه بلاغتك ، ويقدرك قدرك ، ويعطيك من خدمتك حقك . لقد هلك من كنت تتلو عليهم آياتك فيدهشون ، ويخرون سجداً وبكياً . وهل يعرف بلاغتك المعرفة البليغة ، إلا عربي قح صليب ، لم تشن ملكته العربية من العجمة شائبة ، ولم تؤذ أذنه كلمة قلقة واهنة ! ! فسقياً لمثل هذا سقياً ، ونعماً ونكساً وتربا وجندلاً

(١) الثلة الأولى : الجماعة من الناس . والثلة (الثانية) القطيع من الغنم . وهذا من كلام القشاشيبي .

لن يبقى أن نصل ، فستحب اللغة المرذولة ، على لغتك البارعة العذبة الضربة ... » .

ولن أنسى يوماً قدمت فيه إليه ، فأقبل على يحدثني بقلبه ولسانه عن دنيا العروبة والإسلام . وينطلق شأن المؤمن الفضائل ، يؤكد لي اندحار هذه العجمة في يوم (قرب ابانه) ، وانطلاق لغة الضاد من عقالها لتنهض بإعباء الإنسانية ، وتؤدي رسالة الحضارة . وما فتئ يكرر بين حين وحين : (ولم لا يكون ذلك واللغة هي اللغة ، والآباء هم الآباء ، والابن مهما كان جاحداً عقوقاً فلا بد أن تجذبه أصالة المجد وكرم النجار ...) وبحين موعد انصراف فاستشيره في فقرات من قوله أعرضها غطاً من أسلوبه وأنا أتحدث عنه في طليعة الأدباء أثناء يحيى عن (الأدب في فلسطين) في المجلة المحببة إلى قلبه (الرسالة الزاهرة) ، فلا يكون منه إلا أن يتناول كتاباً يضع سبابته على سطر فيه وهو يقول : (أكتب من هنا ، ولن تنطفئ بقول تنتزعه من سوداء نفسي ، وتستخلصه من قرارة يقيني إلا أن يكون هذا !!) . ثم أجدني أقرأ (هناك) كلاماً لا يختلف عما كنت أسمعه منذ هنيهة إلا بالفاظه ، وجعلت أعجب حين رأيتني حيال كلام قاله عام (١٩٢٧) جاء فيه :

« اللغة هي الأمة ، والأمة هي اللغة . وضعف الأولى ضعف الثانية ، وهلاك الثانية هلاك الأولى ... واللغة ميراث أورثه الآباء والأبناء ، وأحزم الوارث صائن ما ورث ، وأسفههم في الدنيا مضيع . وإنا أمم اللسان الغادي لعرب ، وإن لغتنا هي العربية ، وهي الأرث الذي ورثناه . وإنا لحقيقون — والآباء هم الآباء ، واللغة هي اللغة — بأن نفي عربية الجنس ، وعربية اللغة.

ولو كان الموروث صغاراً ، ولو كان الميراث حقيراً لوجب علينا إكبارهم وإعظامه ، فكيف والتاريخ يقول : إن الآباء كانوا كراماً ، وإن الآباء كانوا عظاماً ... والزمان يقول : إن العربية خير ما صنعت يداي . (وأن الدهر لصنع) ، وأنها لخير طرفة أطرفتها الناس ، والزمان بالخير وإن جاد شحيح . فالعربية الصنع الصبور للدهر ، والعربية الدرة اليتيمة ، أو كنز الزمان ، ضن به ثم سخا ... » .

يا أختي القارئة : هذه عبرة فاطقة ، أذرفها بين يديك وذكرى هذا النابغة العبقري فإن أنت عرفته من آثاره ولم تره ، فليس الخبر كالخبر ! وإن كان خبره جديداً عليك (وما أخاله يكون) ، فاعلم أننا في فقده حيال مجاهد كان سيفه القلم ، وميدانه القراطيس ، وجلاده عتيد قاصم ، لا هوادة فيه مع أخصامه ، (وأخصامه أخصام العربية) :

ولطالما حاز النصر باهراً ، والظفر مؤزراً . فرفع من شأن هذه اللغة الكريمة ، ما أعلى منارها وسهل من عسيرها حتى حببها إلى شغاف القلوب . وفي سبيلها لم يجاوز ميداناً إلا سال فيه ولا خصماً إلا ثبت في وجهه ثبات (أحد) و (أبي قبيس)

وأخيراً ، أنحته جراحات الدهر ، فسكن الفؤاد النابض بحب العربية وأهلها ، وصمت اللسان الذليق ، وما كان ليصمت لولا أن أصمته الدهر ...

في رحمة الله أبا عبيدة .

محمد سليم الرشدان

ماجستير في الآداب واللغات السامية

صدر حديثاً :

خمر وخمر

للشاعر الناقد الأستاذ عدنان أسعد

يطلب من دار المعارف ومن جميع المكتبات الشهيرة

بمصر والبلاد العربية

وثمنه ٢٥ قرشاً